نظريَّةُ نزول القرآن جملةً واحدةً في ميزان النَّقد العلميّ

إسرار أحمد خان *

يُعدُّ مبحث نزول القرآن من أهم المباحث في علوم القرآن، حتى أن الزرقاني عدَّ العلم بنُزوله أساساً للإيمان به بوصفه كلام الله، كما يراه أصلاً لسائر المباحث في علوم القرآن[1]. وقد ذكرت كتب علوم القرآن نوعين لنُزول القرآن: أحدهما نزوله جملة واحدة. وثانيهما نزوله منجماً. فأما ما يتصل بالنوع الثاني فليس فيه خلاف بين العلماء لأنه مذكور في القرآن ومصادر الحديث وكتب التاريخ، ولا مجال لمناقشته أو الشك فيه. ولكن النوع الأول مختلف فيه على قولين: أحدهما مؤيد له. وثانيهما رافض له. وعندما نتصفح ما قاله العلماء حول قضية نزول القرآن جملة واحدة يبدو أنّ الخلاف بينهم نشأ عن اختلافهم في تفسير بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن نزول القرآن كما سنبيِّنه لاحقاً.

واختلافهم في التفسير أدّى إلى ظهور اتجاهين مستقلين، أحدهما يقرأ في تلك الآيات المشار إليها الخبر بنُزول القرآن دفعة واحدة. وثانيهما يستنتج من الآيات نفسها ما نزول

* أستاذ مساعد بقسم الدراسات العامة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

[1] الزرقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٨م) ١/٣٥.

القرآن على رسول الله ﷺ لأول مرة بجزئه المشتمل على خمس آيات في صدر سورة العلق. ومن أبرز العلماء الممثلين للاتجاه الأول ابن عباس، والطبري (٣١٠هـ)، وأبوشامة المقدسي (ت٦٦٥هـ)[٢]، وبدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ)[٣]، وجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)[٤]، ومحمد عبد العظيم الزرقاني[٥]، ومناع القطان[٦] وغيرهم. ومن البارزين في الاتجاه الثاني عامر بن شراحيل الشعبي (ت١٠٩هـ)[٧]، ومقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ)[٨]، ومحمد بن إسحاق (ت١٥٣هـ)[٩]، وأبو سليمان الدمشقي (ت١٩٨هـ)[١٠]، وأبو عبد الله الحليمي (ت٤٠٣هـ)[١١]، وأمين أحسن الإصلاحي (ت١٩٩٧م)[١٢]، ومحمد أسد[١٣]، ومحمد صبحي الصالح[١٤]، وعبد الله يوسف علي[١٥] وغيرهم.

وأصحاب كلٍّ من الاتجاهين يدعون أن رأيهم هو الأشهر والأصح.[١٦]

---

٢ المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل أبوشامة، **المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز** (بيروت: دار صادر، ١٩٧٥م) ص ١٨-٢١.

٣ الزركشي، بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن** (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٤م) ١/٣٢٠.

٤ السيوطي، **الإتقان**، ١/٨٢.

٥ الزرقاني، **مناهل العرفان**، ١/٣٩.

٦ القطان، مناع، **مباحث في علوم القرآن** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م) ص ١٠١-١٠٤.

٧ المقدسي، **المرشد الوجيز**، ص ٢١.

٩ الزركشي، **البرهان**، ١/ ٣٢٢.

٨ ابن هشام، **السيرة النبوية** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧م) ١/٣٧٦.

١١ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، **زاد المسير في علم التفسير** (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢) ١/١٦٣.

١٠ الحليمي، أبو عبد الله حسين بن الحسن، **المنهاج في شعب الإيمان** (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م)، ٢/٣٧٦.

١٢ إصلاحي، أمين أحسن، **تدبر قرآن** "باللغة الأردية" (دهلي: شركة التاج، ١٩٩٧م) ٩/٤٦٧.

١٣ محمد أسد، **رسالة القرآن** (جبل الطارق: دار الأندلس، ١٩٨٠م) ص ٩٩٦.

١٤ صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن** (دمشق: الجامعة السورية، ١٩٧٧م) ص ٥١.

١٥ عبد الله يوسف علي، **ترجمة معاني القرآن الكريم** (بيرنيت وود: شركة أمانة، ١٩٩١م) ١٦٧٥.

١٦ **البرهان**، ١/٣٢١. **والإتقان**، ١/٨٢. **زاد المسير**، ١/١٦٢-١٦٣.

وهذه المقالة تمثّل محاولةً لتحليل نقدي علمي لنظرية نزول القرآن جملة واحدة كي تتضح منْزلة هذه النظرية من الصحة، ونأمل أن يجد القارئ جواباً علمياً عن السؤال الآتي: هل هناك مسوغ لاعتماد هذه النظرية؟ وما الأدلة العلمية المعتمدة في ذلك؟

معنى نزول القرآن جملة واحدة

يراد بذلك أن القرآن الكريم كله بجميع الآيات والسور من سورة الفاتحة إلى الناس أنزل دفعة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا في ليلة من ليالي شهر رمضان تعرف بليلة القدر، وهي ليلة مباركة. وحدث هذا النُّزول قبل تنَزُّل القرآن على خاتم النبيين محمد ﷺ منجماً في الشهور والأيام الممتدة على أكثر من عشرين سنة[١٧]. والسرُّ فيه كما قال الحكيم الترمذي: "إن القرآن أنزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا، تسليما منه للأمة ما كان أبرز لهم من الحظ ببعث محمد ﷺ". وقال أبو شامة: "تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنَزَّلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم". وقال الإمام السخاوي (ت٦٤٣هـ): "في نزوله إلى السماء جملة، تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم".[١٨]

أدلة النظرية المذكورة

مصادر الأدلة التي تُقدَّم لإثبات هذه النظرية أربعة: القرآن، والحديث، وقول عبد الله بن عباس ﷺ، والإجماع. أما القرآن ففيه ثلاث آيات استنبط منها العلماء القول بنُزول القرآن جملة واحدة. وهي: ١) آية ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنْزِلَ فيْه القُرْآنُ﴾ {البقرة: ١٨٥}، وآية ﴿إنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَة مُبَارَكَة﴾ {الدخان: ٣}، وآية ﴿إنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَة القَدْر﴾ {القدر: ١}. وقال الطبري: «وأما قوله: ﴿الَّذي أُنْزلَ فيْه القُرْآنُ﴾ فإنه ذكر أنه نزل في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا».[١٩]

---

[١٧] **البرهان**، ٣٢١/١.

[١٨] **الإتقان**، ٨٤/١.

[١٩] الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م) ١٥٠/٢.

وقال ابن الجوزي: "قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن ﴿فِي لَيْلَةِ القَدْرِ﴾ وذلك أنه أنزل جملة في تلك الليلة إلى بيت العزة"[٢٠]. ويقول القرطبي بعد ذكر هذه الآيات: «وفي هذا دليل على أن ليلة القدر إنما تكون في رمضان لا في غيره، ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر جملة واحدة، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا»[٢١]. أما ابن كثير فيقول: «وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل، فنَزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ﴾، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾».[٢٢]

وقال الزرقاني: «دلت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة أخذاً من آية الدخان، وتسمى ليلة القدر أخذاً من آية سورة القدر، وهي من ليالي شهر رمضان أخذاً من آية البقرة. وإنما قلنا ذلك جمعاً بين هذه النصوص في العمل بها، ودفعاً للتعارض فيما بينها. ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أنزل على النبي ﷺ مُفرَّقاً، لا في ليلة واحدة، بل في مدى سنين عدد، فتعين أن يكون هذا النُّزول الذي نوَّهت به هذه الآيات الثلاث نزولاً آخر غير النُّزول على النبي ﷺ»[٢٣]. وقال مناع القطان: «المراد بنُزول القرآن في تلك الآيات الثلاث نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيما لشأنه عند الملائكة ثم نزل بعد ذلك منجماً على رسولنا محمد ﷺ في ثلاث وعشرين سنة».[٢٤]

ويرى السيد أبو الأعلى المودودي (ت١٩٧٩م) في هذه الآيات إشارة واضحة إلى تحويل القرآن جملة إلى حاملي الوحي يعني الملائكة في ليلة القدر.[٢٥]

---

٢٠ ابن الجوزي، **زاد المسير**، ٢٩٥/٨.

٢١ القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن** (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م) ١٩٩/٢.

٢٢ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (بيروت: دار أحياء التراث العربي، ٢٠٠٠م) ٢٢٨/١.

٢٣ الزركشي، **مناهل العرفان**، ٣٧/١-٣٨.

٢٤ مناع القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص ١٠١.

٢٥ المودودي، سيد أبوالأعلى، **تفهيم القرآن** "باللغة الأردية" (لاهور: إدارة ترجمان القرآن، ١٩٩٧م) ٤٠٥/٦.

وأما الحديث الذي يُقدَّم لإثبات هذه النظرية فهو ما رواه الإمام أحمد - واللفظ له - عن شيخه أبي سعيد مولى بني هاشم. والطبري عن شيخه أحمد بن منصور، والطبراني عن شيخه علي بن عبد العزيز، كلاهما عن عبد الله بن رجاء. وهما (أي أبو سعيد مولى بني هاشم وعبد الله بن رجاء) قالا: ثنا عمران أبو العوام، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان».[٢٦]

ونقل ابن كثير رواية ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل الزبور لثنتي عشرة من رمضان، والإنجيل لثماني عشرة، وأنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان».[٢٧]

وقال ابن حجر عن حديث واثلة: «وهذا الحديث مطابق لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنْزلَ فيْه القُرْآنُ﴾، ولقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَة القَدْرِ﴾. فيحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السنة كانت تلك الليلة، فأنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا، ثم أنزل في اليوم الرابع والعشرين إلى الأرض أول ﴿اقْرَأْ باسْم رَبِّكَ﴾».[٢٨]

وقول عبد الله بن عباس ﷺ رواه البزار، والنسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في تآليفهم للأحاديث بواسطة عكرمة، وسعيد بن جبير، ومقسم.

فرواية عكرمة عند النسائي كالآتي: "أخبرنا إسماعيل بن مسعود قال: ثنا يزيد - يعني ابن زريع - قال: ثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: نزل القرآن جملة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، فكان إذا أراد الله أن يحدث منه شيئاً أحدثه».[٢٩]

---

[٢٦] ابن حنبل، أحمد بن محمد، **المسند** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٤م) ج٥، رقم الحديث: ١٦٥٣ وابن جرير الطبري، **جامع البيان**، ١٥٠/٢، رقم الرواية: ٢٨٢١ والطبراني، سليمان بن أحمد، **المعجم الأوسط** (القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥هـ) ١١١/٤.

[٢٧] **تفسير ابن كثير**، ٢٢٨/١.

[٢٨] ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج٩، ص٥.

[٢٩] النسائي، أحمد بن شعيب، **السنن الكبرى** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١م) ج٥، رقم الحديث ٧٩٩٠.

ورواية سعيد بن جبير عند النسائي أيضاً: «حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم قال: ثنا الفريابي، سفيان، عن الأعمش، عن حسان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا فجعل جبريل عليه السلام ينْزل على النبي ﷺ يرتِّله ترتيلا». [٣٠]

وأما رواية مقسم فأخرجها ابن مردويه والطبري والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق «إسرائيل، عن السدي، عن محمد بن أبي المجالد، عن مقسم، عن ابن عباس أنه سأل عطية بن الأسود فقال: أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنْزلَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَة القَدْر﴾ وهذا نزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم وصفر وشهر ربيع. فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام». [٣١]

وأما دعوى الإجماع فإن القرطبي قال رداً على مقاتل: «هذا خلاف ما نقل من الإجماع أن القرآن أنزل جملة واحدة». [٣٢]

النقد العلمي للنظرية

قبل إقرار هذه النظرية أو إنكارها، من الواجب تحليل الأدلة التي قُدِّمت أو تُقَدَّم لإثباتها؛ لأن بيان وجه القصور أو الصواب فيها أقرب سبيل للوصول إلى الحقيقة.

أولاً: الآيات القرآنية

إن آية البقرة: ١٨٥ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنْزلَ فيْه القُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاس وَبَيِّنَات مِّنَ الهُدَى وَالفُرْقَان﴾ بكاملها تهدي إلى المعنى الذي يختلف عن المعنى المستخرج من جزئها الأول فقط، حيث وردت فيها ثلاث كلمات، وهي: "هدى". و"بينات من الهدى". و"الفرقان" وهذه الكلمات تختص بالناس الذين يسكنون الأرض، فلا يستطيعون الاهتداء إلى الحق إلا بمنبع الهدى يعني الكتاب المنَزَّل من الله. وما استفادوا منه التفريق بين الحق والباطل إلا بتعمقهم فيه. فدلت هذه الكلمات الثلاث الخاصة بالناس على أن النُّزول

---

[٣٠] المصدر نفسه، رقم الحديث ٧٩٩١.

[٣١] ابن جرير الطبري، **جامع البيان**، ١٥١/٢، رقم ٢٨٢٩ والسيوطي - واللفظ له - ، **الإتقان**، ٨٣/١ وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص٢١٧.

[٣٢] **الجامع لأحكام القرآن**، ١٩٩/٢.

المذكور في الآية هو ذلك النُّزول الذي وقع من السماء إلى الأرض؛ لأنه هو الذي كان سبباً في هداية الناس وفوزهم، ومفرقاً بين الحق والباطل، لا الذي يُدَّعى.

والجزء الأخير من الآية ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ {البقرة: ١٨٥} أيضاً يدل على أن نزول القرآن المذكور في صدر الآية هو نزوله إلى الأرض وليس إلى السماء، وذلك لأن الله طلب فيه من المسلمين التكبير والشكر على هدايتهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد. فلو كانت الإشارة في الآية إلى نزول القرآن في السماء لما قال: ﴿على ما هداكم﴾؟

إذا ثبت أن تلك الآيات الثلاث تدل على نزول القرآن إلى الدنيا فهي بالتالي تشير إلى نزول الآيات الخمس في صدر سورة العلق ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإنْسَانَ منْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذي عَلَّمَ بالقَلَم ۞ عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ التي بدأ نزول القرآن بها، أنزلت في رمضان. روى ابن جرير الطبري عن أبي قتادة الأنصاري: أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم الاثنين؟ فقال: "ذلك يومٌ ولدت فيه، ويومٌ أنزلت عليَّ فيه النبوة". ثم قال الطبري: «وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم، واختلفوا في أي الأثانين كان ذلك. فقال بعضهم: نزل القرآن على رسول الله ﷺ لثماني عشرة خلت من رمضان. وقال أبو قلابة: أنزل الفرقان على رسول الله ﷺ لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان. وقال أبو الجلد: نزل الفرقان لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان. وقال آخرون: بل نزل لسبع عشرة خلت من رمضان، واستشهدوا على ذلك بقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَومَ الفُرقَان يَومَ الْتَقَى الجَمْعَان﴾، وذلك ملتقى رسول الله ﷺ والمشركين ببدر، وأن التقاء رسول الله ﷺ والمشركين ببدر كان صبيحة سبع عشرة من رمضان».[٣٣]

وقد يقول بعضهم: إن في آية البقرة تلك ذكراً لنُزول القرآن كله، وليس نزول آيات منه فكيف يستقيم قولك؟ والجواب عن هذا الإشكال يسير، إذ من المعروف أن العلماء اتفقوا على أن كلمة "القرآن" تطلق على القرآن كله وعلى الجزء منه على السواء. وقد ورد إطلاق "القرآن" على جزء منه في آيات كثيرة، منها مثلاً: ﴿فإذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعذْ باللهِ منَ الشَّيْطَان الرَّجيْم﴾ {النحل: ٩٨}؛ و﴿وَإذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذيْنَ

---

[٣٣] الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الأمم والملوك** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م) ١/٥٢٨-٥٢٩.

لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ {الإسراء: ٤٥}؛ و﴿وَلاَ تَعْجَلْ بالقُرْآن مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ {طه: ١١٤}؛ وأمثالها من الآيات المكيات. قصد فيها من "القرآن" أجزاء القرآن المُنزَّلة على النبي ﷺ في مكة، لا القرآن كله. وفي ضوء هذا المبدأ فإن إطلاق كلمة "القرآن" على الوحي الأول المشتمل على خمس آيات في صدر سورة العلق جرى على سنن القرآن في التعبير.

وأما آية الدخان ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة مُبَارَكَةٍ﴾ فلها سياق خاص. وهو أن سورة الدخان نزلت رداً على ما زعمه كفار مكة من أن القرآن اخترعه محمد ﷺ من تلقاء نفسه أو أخذه من بعض أهل الكتاب كما تشير إليه الآية الرابعة عشرة: ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ أَو مَجْنُونٌ﴾، فأكدت السورة في صدرها أن القرآن من عند الله، وليس من عند غيره فقالت: ﴿حم وَالْكتَاب الْمُبِيْن ۞ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة مُبَارَكَة إِنَّا كُنَّا مُنذِرِيْنَ﴾[٣٤]. وكان زعم قريش ذلك بعد سماعهم قراءة رسول الله ﷺ بعض القرآن، لا القرآن كله. وكلمة "الكتاب" في قوله: ﴿وَالكتَاب الْمُبِيْن﴾ لم ترد بمعنى القرآن كله. ولأجل ذلك فليس فيها ذكر نزول القرآن جملة واحدة، بل فيها ذكر نزول بعضه. ولو كان في الآية ذكرٌ لنُزول الكتاب بأكمله في السماء الدنيا لما كان لربطه باعتراض قريش معنى. ثم إن الإنذار الوارد في الآية لا يتحقق بنُزول القرآن في السماء، وإنما بنُزوله في الأرض.

ثم الذي نزل في الليلة المباركة هو الآيات الخمس من سورة اقرأ التي بدأ نزول القرآن بها. قال ابن عطية في تفسير الآيات الأولى لسورة الدخان: «وقالوا: إن كتب الله كلها إنما نزلت في رمضان: التوراة في أوله، والإنجيل في وسطه، والزبور في نحو ذلك، ونزل القرآن في آخره في ليلة القدر، ومعنى هذا النُّزول أن ابتداء النُّزول كان في ليلة القدر، وهذا قول الجمهور. وقالت فرقة: بل أنزله الله جملة ليلة القدر»[٣٥]. وقال سيد قطب: "والليلة المباركة التي أنزل فيها القرآن هي - والله أعلم - الليلة التي بدأ فيها نزوله ... والقرآن لم ينْزل كله في تلك الليلة ... ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض؛ وكانت هذه الليلة موعد ذلك الاتصال المبارك. وهذا يكفي في تفسير إنزاله في الليلة المباركة"[٣٦]. وقال السيد المودودي:

---

[٣٤] **تفهيم القرآن**، ٥٥٩/٤.

[٣٥] ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م) ٦٨/٥.

[٣٦] سيد قطب، **في ظلال القرآن** (القاهرة: دار الروق، ١٩٩٦م) ٣٢٠٨/٥.

«فأما معنى نزول القرآن في ليلة مباركة فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن القرآن ابتدأ نزوله في تلك الليلة. وعند بعضهم انتقل القرآن كله في تلك الليلة من أم الكتاب إلى حاملي الوحي من الملائكة... والله أعلم بأصحهما»[٣٧]. وإذا قرأناها مربوطة بسياقها نجد الرأي الأول أقرب إلى الصواب. وأما الرأي الثاني فلا يرجح إلا باقتطاع الآية من سياقها، وفيه ما فيه من مجانبة الصواب، والابتعاد عن المقصود.

وأما آية القدر ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ فسياقها أيضا يدل على ما قلنا. ففقرتها الأولى ﴿إنا أنزلناه﴾ ترمي إلى أن السورة قد نزلت ردا على ما ادعته قريش من أن القرآن قد اخترعه محمد ﷺ أو أي إنسان غيره. فقيل لهم: ليس هذا القرآن بتأليف محمد ﷺ بل أنزله الله عليه.[٣٨]

وآيتها الرابعة ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أيضاً تدل على الحقيقة نفسها، وهي نزوله إلى الناس؛ لأن المراد من "الروح" في هذه الآية هو جبريل عليه السلام الذي كان ينْزل على قلب رسول الله ﷺ ﴿نَزَلَ به الرُّوحُ الأَمِيْنُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِيْنَ﴾ {الشعراء: ١٩٣-١٩٤}. فمعنى ذلك أنه كان نزول جبريل مع الملائكة الآخرين من السماء إلى الأرض في ليلة القدر لإنزال القرآن أي الآيات الخمس من سورة العلق على نبينا محمد ﷺ.

وإذا كان نظم القرآن من أهم أصول تفسير القرآن. فإن استخدام هذا المبدأ في الوصول إلى معنى الآية الأولى في سورة القدر يقودنا إلى تأويل مبتكر. بيان ذلك أن سورة العلق قبل سورة القدر في ترتيب سور القرآن. وفيه حكمة بالغة وهي التناسب بين مضموني هاتين السورتين؛ فإن الضمير المتصل "الهاء" في قوله ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ عائد إلى كلام الله في السورة السابقة. فتفسير قوله ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ "إنا أنزلنا ذلك الكلام الذي وضع في صدر سورة العلق يعني الآيات الخمس الأولى على نبينا محمد ﷺ في ليلة القدر"، قال سيد قطب في تفسير هذه الآية: «والليلة التي تتحدث عنها السورة هي الليلة التي جاء ذكرها في سورة الدخان ... والمعروف أنها ليلة من ليالي رمضان، كما ورد في سورة البقرة ... أي

---

[٣٧] تفهيم القرآن، ٥٥٩/٤.

[٣٨] نفسه، ٤٠٢/٦.

التي بدأ فيها نزول القرآن على قلب الرسول ﷺ ليبلغه إلى الناس. وفي رواية ابن إسحاق أن أول الوحي بمطلع سورة العلق كان في شهر رمضان».[٣٩]

وقال أمين أحسن الإصلاحي: «إن القول بنُزول القرآن في ليلة القدر لا يستلزم نزوله جملة فيها، بل يحتمل أن الله أراد نزول القرآن فيها، وفوض ذلك الأمر إلى جبريل، فنَزَل الوحي الأول في تلك الليلة».[٤٠]

وفي الآيات الثلاث {البقرة:١٨٥ والدخان:٣ والقدر:١} ورد ذكر وقت نزول القرآن وهو بالترتيب: رمضان، وليلة مباركة، وليلة القدر. وهذه كلها من المظاهر الأرضية وليس السماوية، لذا يكون نزوله متصلاً بالأرض لا بالسماء. بينما نظرية نزول القرآن جملة تتصل بكيفية نزول القرآن التي لا ذكر لها في تلك الآيات.

روي عن عامر بن شراحيل الشعبي أن المراد بنُزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله ﷺ، فقد ابتدأ نزوله في ليلة القدر من شهر رمضان وهي الليلة المباركة، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجا مع الوقائع والأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة.

فليس للقرآن سوى نزول واحد، وهو نزوله منجما على رسول الله ﷺ، لأن هذا هو الذي جاء به القرآن. ولا تظهر مزية شهر رمضان وليلة القدر التي هي الليلة المباركة إلا إذا كان المراد من نزول القرآن في الآيات الثلاث نزوله على الرسول ﷺ، وهذا يوافق ما جاء في قوله تعالى في غزوة بدر: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَومَ الفُرْقَان يَومَ الْتَقَى الجَمْعَان وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيء قَدِيْرٌ﴾ {الأنفال: ٤١} وغزوة بدر كانت في رمضان. ويؤيده أيضاً ما عليه المحققون من شراح حديث بدء الوحي؛ فإنهم اتفقوا على أن الرسول ﷺ نُبِّئ أولاً بالرؤيا في شهر ربيع الأول، واستمرت ستة أشهر، ثم أوحي إليه يقظة في شهر رمضان باقرأ، وبهذا تتآزر النصوص على معنى واحد.[٤١]

قال ابن إسحاق: «فابتدأ رسول الله ﷺ بالتنْزيل في شهر رمضان، بقول الله عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنزلَ فيْه القُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاس وَبَيِّنَاتٍ منَ الهُدَى

---

٣٩ في ظلال القرآن، ٦/٣٩٤٤.

٤٠ إصلاحي، تدبر قرآن، ٩/٤٦٧.

٤١ مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص ١٠٢-١٠٣.

وَالفُرْقَانِ﴾ {البقرة: ١٨٥}، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ ۝ لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ المَلائكَةُ وَالرُّوحُ فِيْهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ من كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ﴾ {القدر: ١-٥}، وقال الله تعالى: ﴿حم وَالكِتَابِ المُبِيْنِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِيْنَ ۝ فِيْهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيْمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِيْنَ﴾ {الدخان: ١-٥}، وقال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَومَ الفُرْقَانِ يَومَ الْتَقَى الجَمْعَانِ﴾ {الأنفال: ٤١} وذلك ملتقى رسول الله ﷺ والمشركين ببدر».[٤٢]

وقال الزمخشري في الكشاف: «ومعنى ﴿أُنزِلَ فِيْهِ القُرْآنُ﴾ ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر»[٤٣]. وقال فخر الدين الرازي في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ فِيْهِ القُرْآنُ﴾ في تفسيره قولان، الأول: وهو اختيار الجمهور: أن الله تعالى أنزل القرآن في رمضان على النبي ﷺ. والقول الثاني: قال سفيان بن عيينة: أنزل فيه القرآن معناه أنزل في فضله القرآن»[٤٤]. وقال السيد المودودي: «قيل في سورة القدر ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ﴾، وفي قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيْهِ القُرْآنُ﴾ {البقرة: ١٨٥}: يتضح منهما أن الليلة التي نزل فيها ملك الله أول مرة على النبي ﷺ بالوحي في غار حراء كانت ليلة من شهر رمضان. وهذه هي الليلة التي قيل لها ليلة مباركة في آية ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيَلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ {الدخان: ٣}»[٤٥]. وقال أمين أحسن الإصلاحي: «لا يستلزم قول نزول القرآن في ليلة مباركة نزوله جملة في تلك الليلة، بل فيها إشارة إلى ابتداء نزوله المبارك. إذا ابتدأ شيء في ساعة مباركة، وقُضِيَ الأمر لتكميله فمعناه اكتمل الأمر في نفس الساعة المباركة».[٤٦]

والجدير بالذكر أن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية قد طبعت ترجمة القرآن باللغة الإنجليزية للأستاذ عبد الله يوسف

---

[٤٢] ابن هشام، **السيرة النبوية**، ٢٧٦/١.

[٤٣] الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنْزيل** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م) ٢٢٥/١.

[٤٤] الرازي، فخر الدين، **مفاتيح الغيب** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧) ٢٥٢/٢.

[٤٥] المودودي، **تفهيم القرآن**، ٤٠٤/٦.

[٤٦] إصلاحي، **تدبر قرآن**، ٢٦٨/٧.

علي في ١٤٠٥هـ بعد التنقيحات والتعديلات التي تمت على أيدي عدة لجان مؤلفة من العلماء المؤهلين تأهيلاً شرعياً عالياً، فضلاً عن إجادتهم اللغة الإنجليزية إجادة تامة من منسوبي الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية. وفي هذه الترجمة المنقحة بدلت لجان العلماء قول عبد الله يوسف علي في مقدمة سورة القدر: «الموضوع فيها ليلة القدر ذات السر التي أنزل الوحي فيها إلى الدنيا المملوءة بالظلمة بواسطة الملائكة الذين يمثلون السلطات الروحانية لرحمة الله تعالى»، بقول آخر وهو: «الموضوع فيها ليلة القدر التي جاء الوحي فيها لأول مرة على الرسول ﷺ بواسطة الملك جبريل».[٤٧]

ثانيا: رواية واثلة بن الأسقع

معنى هذه الرواية أن الصحف أنزلت على إبراهيم عليه السلام، والتوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، والقرآن، في رمضان. وليس فيها أي قرينة لاستنباط القول بأن الكتب السابقة السماوية نزلت كلها في رمضان على أنبيائها عليهم السلام، ولكن القرآن بكامله نزل في رمضان ليس على محمد ﷺ، بل إلى بيت العزة في السماء الدنيا، بل هو أيضاً نزل على محمد ﷺ. واستشهد كل من محمد بن جرير الطبري في تاريخ الملوك والأمم[٤٨] وابن كثير في كتابه البداية والنهاية[٤٩] وابن الأثير في الكامل في التاريخ[٥٠] وفخر الدين الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب[٥١] بهذه الرواية على ابتداء نزول الوحي على خاتم النبيين ﷺ.

وهذا الاستشهاد صحيح، ولكن في ضوء رواية أخرى رواها أبو يعلى في مسنده قال: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن عبيد الله، عن أبي مليح، حدثنا جابر بن عبد الله قال: أنزل الله صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة على

---

٤٧ علي، عبد الله يوسف، **القرآن الكريم وترجمة معانيه وتفسيره إلى اللغة الإنكليزية**، تنقيح وإعداد: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والدعوة والإرشاد (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٠٥هـ) ص ١٩٨٤.

٤٨ **تاريخ الأمم والملوك**، ٥٢٨/١.

٤٩ ابن كثير، **البداية والنهاية** (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٧م) ١٠/٣.

٥٠ ابن الأثير، عز الدين، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٤م) ٤٧٧/١.

٥١ الرازي، **مفاتيح الغيب**، ٢٥٢/٢.

موسى لست خلون من رمضان، وأنزل الزبور على داود في إحدى عشرة ليلة خلت من رمضان، وأنزل القرآن على محمد ﷺ في أربع وعشرين خلت من رمضان.[٥٢]

فما كان مبهما في رواية واثلة بن الأسقع أصبح واضحا في رواية جابر بن عبد الله، وذلك لأن حديث واثلة لم يتحدث عن مكان نزول الكتب بما فيها القرآن، بينما حديث جابر بن عبد الله صرح بأن نزول الكتب السابقة والقرآن في رمضان كان من السماء إلى أنبيائها، وهم كانوا موجودين في الأرض، وليس في السماء الدنيا.

وهناك رواية أخرى نقلها الخازن في تفسيره عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: "أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث ليال مضين من رمضان - وفي رواية: في أول ليلة من رمضان -، وأنزلت توراة موسى في ست ليال مضين من رمضان، وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل زبور داود في ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في الرابعة والعشرين لست بقين بعدها". ثم قال الخازن: «فعلى هذا يكون إبتداء نزول القرآن على محمد ﷺ في شهر رمضان. وهو قول ابن إسحاق وأبي سليمان الدمشقي».[٥٣]

والعجيب من ابن حجر العسقلاني وابن كثير وغيرهما أنهم استشهدوا برواية واثلة بن الأسقع لإثبات نظرية نزول القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا. ولو حققوا في هذا الأمر ونظروا إلى قول جابر بن عبد الله، ورواية أبي ذرّ عن النبي ﷺ لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه باعتمادهم على رواية واثلة بن الأسقع المبهمة.

وإذا سلمنا جدلاً بما استنبطوا من رواية واثلة بن الأسقع من إفادتها نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا، فإنها ضعيفة السند. فإن أحد رواته، وهو أبو سعيد مولى بني هاشم، وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبيد البصري. قال الإمام أحمد بن حنبل فيه: هو كثير الخطأ. وفي سندها أيضا عمران أبو العوام وهو عمران بن داور العمي أبو العوام القطان البصري، قال عنه ابن معين: ليس بقوي. وقال مرة: ليس بشيء. وقال النسائي: ضعيف.[٥٤]

---

٥٢ أبو يعلى، أحمد بن علي، **مسند أبي يعلى** (دمشق: دار المأمون للتراث، ١٩٨٤م) ص ١٣٥-١٣٦.

٥٣ الخازن، علي بن محمد، **لباب التأويل في معاني التنزيل** (بيروت: دار الفكر، د، ت، ط) ١/١١١.

٥٤ المصدر نفسه، ٤/٣٨١.

وفضلاً عن ضعف هذه الرواية فإنه لا يوجد أي حديث صحيح أو ضعيف يتكلم صراحة عن نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا. ولعل عدم وجود حديث للنبي ﷺ في هذا الأمر المهم يدل على عدم حدوث ذلك النُّزول لأن حدثا بهذه الأهمية في الشرع لا يتصور سكوت النبي ﷺ في حقه، إلا إذا كان الأمر غير موجود أصلاً، وهو ما رجحناه سابقاً.

ثالثاً: قول ابن عباس

كما ذكر في البداية أن قول ابن عباس روي عن طريق مقسم وعكرمة وسعيد بن جبير. أما رواية مقسم ففيها ضعف لأن في إسنادها السدي وهو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي الكبير، قال فيه يحيى بن معين: في حديثه ضعف. وقال الجوزجاني: هو كذاب شتام. وقال أبو زرعة: لين. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال العقيلي: ضعيف وكان يتناول الشيخين. وقال الساجي: صدوق فيه نظر. وقال الطبري: لا يحتج بحديثه.[٥٥]

وأما روايتا عكرمة وسعيد بن جبير فهما صحيحتان إذ جميع رواتهما من الثقات. ولكن أكثر ما يقال فيه أنه قول ابن عباس. وليس مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ. وفي أصول الحديث تسمى كل رواية ينتهي إسنادها إلى صحابي موقوف. واختلف العلماء في الاحتجاج بما ثبت عن الصحابة من الموقوفات في إثبات الأحكام الشرعية، فذهب الرازي من الحنفية، وفخر الإسلام، والسرخسي، والمتأخرون منهم، ومالك، وأحمد في إحدى روايتيه إلى أنه حجة، لأن حال الصحابة كان العمل بالسنة وتبليغ الشريعة. وذهب بعض الحنفية والشافعي إلى أنه ليس بحجة لاحتمال أن يكون من اجتهاد الصحابي الخاص، أو يكون سمعه من غير رسول الله ﷺ.[٥٦]

ويرى المحدثون أن الرواية الموقوفة التي تتحدث عن أمر لا مجال فيه للرأي والقياس، كالمواقيت، والمقادير الشرعية، وأحوال الآخرة، وقصص الماضين لها حكم الرفع إلى رسول الله ﷺ.[٥٧]

---

٥٥ المصدر نفسه، ٢٥٨/١.

٥٦ عتر، نور الدين، **منهج النقد في علوم الحديث** (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٢م) ص ٣٢٨.

٥٧ نفسه.

قال محمد عبد العظيم الزرقاني: «وهي أحاديث موقوفة على ابن عباس، غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، لما هو مقرر من أن قول الصحابي ما لا مجال للرأي فيه ولم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات حكمه حكم المرفوع. ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم، وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات، فثبت الاحتجاج بها».[٥٨]

لا شك في أن قول ابن عباس يتعلق بخبر الغيب، ولكن لم يثبت أنه أخذه عن رسول الله ﷺ. وهناك احتمال أنه أخذه عن الإسرائيليات، وقول الزرقاني: "إن ابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات" يخالف الواقع. قال الدكتور الذهبي في التفسير والمفسرون: "كان ابن عباس يرجع إلى أهل الكتاب ويأخذ عنهم، بحكم اتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل"[٥٩].

والقول المذكور عن ابن عباس من أقواله التفسيرية، وليس مجرد خبر. لقد نقل الحاكم النيسابوري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا[٦٠]. تؤكد هذه الرواية أن ما قاله ابن عباس هو رأيه في تفسير الآية الأولى من سورة القدر. وتفسير الصحابة محل اجتهاد، وليس نقلاً عن رسول الله ﷺ. قال الإمام النووي في تقريبه: «وأما قول من قال إن تفسير الصحابي مرفوع فذاك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية أو نحوه، وغيره موقوف»[٦١]. وقال الحاكم النيسابوري: «فإن الصحابي الذي شهد الوحي والتنْزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا وكذا فإنه حديث مسند».[٦٢]

---

[٥٨] **مناهل العرفان**، ٣٨/١.

[٥٩] الذهبي، محمد حسين، **التفسير والمفسرون** (د. ط، ت) ٧٠/١-٧١.

[٦٠] النيسابوري، محمد بن عبد الله الحاكم، **المستدرك على الصحيحين** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م) كتاب التفسير، ٢٤٢/٢، رقم الحديث: ٢٨٧٨.

[٦١] السيوطي، **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٩م) ١٩٢/١.

[٦٢] النيسابوري، الحاكم، **معرفة علوم الحديث** (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٩٧م) ص ٦١.

وفي ضوء ما قاله النووي والحاكم فإن أقوال الصحابة التي تختص بأسباب نزول الآيات القرآنية تعد مرفوعة إذ أن الصحابة عاينوا نزول الوحي وعاصروه. ولكن أقوالهم التفسيرية لا تعد كالأخبار المسندة إلى النبي ﷺ. قال أحمد محمد شاكر: «أما إطلاق بعضهم أن تفسير الصحابة له حكم المرفوع، وأن ما يقوله الصحابي مما لا مجال فيه للرأي مرفوع حكما كذلك، فإنه إطلاق غير جيد لأن الصحابة اجتهدوا كثيراً في تفسير القرآن، فاختلفوا، وأفتوا مما يرونه من عمومات الشريعة تطبيقاً على الفروع والمسائل. ويظن كثير من الناس أن هذا مما لا مجال للرأي فيه. وأما ما يحكيه بعض الصحابة من أخبار الأمم السابقة، فإنه لا يعطى حكم المرفوع أيضاً لأن كثيراً منهم ﷺ كان يروي الإسرائيليات عن أهل الكتاب، على سبيل الذكرى والموعظة، لا بمعنى أنهم يعتقدون صحتها أو يستجيزون نسبتها إلى رسول الله ﷺ؟ حاشا وكلا».[٦٣]

وقال ابن الصلاح: «وقد روى العبادلة - يعني عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص - عن كعب الأحبار»[٦٤]. ومن المعروف أن كعب الأحبار كان من أهل الكتاب من اليهود قبل إسلامه، وكان لا يزال بعد إسلامه يرجع إلى التوراة والتعاليم الإسرائيلية. وليس بمستبعد أن يكون ابن عباس قد أخذ عنه روايات تحتوي على العديد من الأخبار والقصص بما فيها أخبار المغيبات. ولأجل ذلك فمن المحتمل أن ابن عباس سمع من كعب الأحبار بعض الأخبار المتعلقة بنُزول الكتب السماوية السابقة من اللوح المحفوظ إلى حاملي الوحي من الملائكة قبل نزولها على الرسل.

إن خبر نُزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة خبر عظيم، ومع ذلك لم يكن معروفا بين الصحابة، أو على الأقل بين الذين وصفهم رسول الله ﷺ بأنهم معلمو القرآن، منهم عبد الله بن مسعود وسالم وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل رضوان الله عليهم

---

٦٣ أحمد محمد شاكر، **الباعث الحثيث** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م) ص ٤٥.

٦٤ نفسه، ص ١٩١.

أجمعين[٦٥]. وخاصة عبد الله بن مسعود الذي عد أعلم الصحابة فيما يتعلق بالقرآن فإنه لم يعرف عنه مثل ما قاله ابن عباس في نزول القرآن في السماء الدنيا. روى البخاري عن مسروق بن الأجدع قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه».[٦٦]

وهذا الأثر يدل على إحاطة ابن مسعود بمعاني كتاب الله، صاحب مدرسة التفسير بالعراق التي تعلم منها كثير من الناس معاني القرآن، وأشهر خريجيها علقمة بن قيس (ت٦١هـ)، ومسروق بن الأجدع (ت٦٣هـ)، وعامر بن شراحيل الشعبي (ت١٠٩هـ)، والحسن البصرى (ت١١٠هـ) كلهم أخذوا تفسير القرآن الكريم من ابن مسعود[٦٧]. توحي هذه الحقيقة التاريخية بأنهم قد تعلموا من ابن مسعود تأويل الآيات الثلاث التي تتحدث عن نزول القرآن في رمضان وليلة مباركة وليلة القدر. ولا نجد لديهم أي قول عن تلك الآيات المذكورة بمعنى نزول القرآن جملة، بل وإن عامر الشعبي من أصحاب الاتجاه الآخر كما سبق، ولا يستبعد أن يكون مذهبه هذا مأخوذاً من ابن مسعود في تفسير تلك الآيات الثلاث. والأعجب من ذلك أن أبا هريرة الذي كان أكثر الصحابة رواية لم يرو ما روي عن ابن عباس في نزول القرآن جملة. وكان أبو هريرة أشد الصحابة حرصاً على أخذ العلم من النبي ﷺ ومن كبار الصحابة. ولو كان هذا الخبر مأخوذاً عن النبي ﷺ لشاع وذاع بين حاملي القرآن الأولين، ورواه العديد من الصحابة، ولكان متواتراً.

وقد جمع الإمام أحمد بن حنبل في مسنده مرويات ابن عباس برواية تلاميذه بمن فيهم عكرمة وسعيد بن جبير. وقمت بعملية استقراء مستوعبة لجميع روايات ابن عباس في مسند أحمد البالغة ألفاً وست مائة وأربعاً وتسعين (١٦٩٤) بدءاً بالحديث

---

٦٥ البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٠هـ) ج٣، كتاب فضائل القرآن، ، رقم الحديث: ٤٩٩٩.

٦٦ المصدر نفسه، رقم الحديث: ٥٠٠٢.

٦٧ الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ١/١١٨-١٢٧.

رقم ١٨٤١ونهايةً بالحديث رقم ٣٥٣٧، ولكني لم أجد فيها تلك الرواية المتعلقة بنُزول القرآن جملة، مما يدل على أن ذلك القول لم يكن معروفاً، أو لم يكن مقبولاً.

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أحاديث كثيرة في فضائل القرآن، ولكنهما لم يرويا حديثاً في نزول القرآن جملة مع أن هذه الكيفية لنُزول القرآن تمثّل فضيلة عظيمة للقرآن. مما يؤيد ما قلنا في مسند أحمد.

وروى النسائي في كتابه السنن الكبرى رواية نزول القرآن جملة عن عكرمة وسعيد بن جبير، غير أنه حذفها في كتابه السنن الصغرى الذي ميز فيه الصحيح من غيره، وسماه المجتبى من السنن الكبرى. ولأجل ذلك قال العلماء: إن درجة السنن الصغرى بعد الصحيحين لأنها أقل السنن بعدهما ضعيفاً[٦٨]. فمن الراجح أن النسائي ترك رواية عكرمة وسعيد بن جبير لأنه وجد فيها مغمزاً ما في سندها، أو في متنها.

ومع أن نسبة نظرية نزول القرآن جملة إلى ابن عباس صحيحة من ناحية إسناد الرواية، فإن ثمة أسباباً أخرى قد تبعث أهل العلم على الشك فيها، وهي عدم معرفة الصحابة الآخرين بها، خاصة معلمي القرآن منهم. وعدم ورودها في صحيحي البخاري ومسلم ومسند أحمد بن حنبل. وعدم ذكر النسائي إياها في سننه الصغرى، وتعارض هذه النظرية مع سياق الآيات الثلاث المذكورة.

قال الدكتور صبحي صالح: «ولسنا نميل إلى الرأي القائل بأن للقرآن تَنَزُّلات ثلاثة: الأول إلى اللوح المحفوظ. والثاني إلى بيت العزة في السماء الدنيا. والثالث تفريقه منجماً بحسب الحوادث؛ وإن كانت أسانيد هذا الرأي كلها صحيحة لأن هذه التنَزُّلات المذكورة من عالم الغيب الذي لا يؤخذ فيه إلا بما هو تواتر يقينا في الكتاب والسنة، فصحة الأسانيد في هذا القول لا تكفي وحدها لوجوب اعتقاده، فكيف وقد نطق القرآن بخلافه؟».[٦٩]

---

٦٨ عويضة، كامل محمد، **أعلام الفقهاء والمحدثين: النسائي** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م) ص ٦٥.

٦٩ صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، ص ٥١.

في ضوء ما تقدم في السطور السابقة فقد اتضح أن نظرية نزول القرآن جملة من آراء ابن عباس الشخصية. والرأي الشخصي قد يكون صحيحاً، وقد يكون مبنياً على خطأ. ولقد نقد العلماء العديد من آراء ابن عباس ولم يقبلوها فهذا ابن الجوزي في كتابه نواسخ القرآن يرد عدة أقوال لابن عباس في تعيين الآيات المنسوخة[٧٠].

رابعاً: دعوى الإجماع

وأما ما ادعاه القرطبي من إجماع العلماء على نظرية نزول القرآن جملة فهو بعيد عن الحقيقة. فقد ذكر جميع المختصين في علوم القرآن تقريبا وأكثر المفسرين في تفاسيرهم اختلاف العلماء في ذلك كما سبق أن بينا بالتفصيل، ولم يدَّعِ أحد منهم وقوع الإجماع عليها، بل بيّن كل منهم وجه ترجيحه رأياً من الآراء المختلفة.

قال الزرقاني: «وكان هذا النُّزول جملة واحدة في ليلة واحدة هي ليلة القدر. وهناك قول ثان بنُزول القرآن إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر. وثمة قول ثالث إنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر»[٧١]. وقال مناع القطان: «وللعلماء في هذا مذهبان أساسيان: المذهب الأول وهو الذي قال به ابن عباس وجماعة وعليه جمهور العلماء. والمذهب الثاني وهو الذي روي عن الشعبي. وهناك مذهب ثالث يرى أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة القدر»[٧٢]. اتضح من هذه الأقوال لعلماء المتقدمين والمتأخرين أن قضية نزول القرآن جملة واحدة ليست مجمعاً عليها، بل هي متنازع فيها.

نتيجة البحث

إن نظرية نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة واحدة في ليلة القدر مبنية على أربعة دلائل: ثلاث آيات قرآنية، وحديث واثلة، وقول ابن عباس، ودعوى الإجماع. والآيات القرآنية الثلاث - حسب رأينا - لا تتكلم عن نزول القرآن من السماء إلى السماء، بل من السماء إلى الأرض على الرسول ﷺ. وأما حديث واثلة

---

[٧٠] ابن الجوزي، **نواسخ القرآن** (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط،ت) ص ١٦٦، ١٧٧.

[٧١] **مناهل العرفان**، ١/٣٨-٣٩.

[٧٢] القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص ١٠١-١٠٣.

فسنده ضعيف، كما أن في متنه إشارة إلى أن نزول القرآن الأول كان نزولاً على رسول الله ﷺ كما جاء ذلك صراحة في حديث جابر. ولقد رأينا أن قول ابن عباس صحيح من ناحية الإسناد، ولكن من ناحية المضمون فيه نظر بعدة اعتبارات بيناها في السطور السابقة. وأما دعوى الإجماع فغير صحيحة لأن مؤلفي كتب علوم القرآن وأكثر المفسرين قد تعرضوا لهذه المسألة وذكروا الخلاف فيها.

فثبت حسب رأينا أن نظرية نزول القرآن جملة واحدة نظرية ضعيفة، لا ينبغي الاعتماد عليها، بل ينبغي القول كما قال الشعبي وغيره بأن لنُزول القرآن كيفية واحدة، وهي نزوله منجماً على خاتم النبيين ﷺ. وللقارئ الكريم أن يقبل رأينا واستدلالاتنا، أو يردهما بالدليل. والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.